البـــاب الأول

معنـــى الإصـــلاح

obeikandl.com

obeikandl.com

من أين يبدأ الإصلاح؟

قال تعالى: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف: ١٧٠].

الإصلاح: مصدر أصلح يصلح وهو مأخوذ من مادة (ص ل ح) التي تدل على خلاف الفساد يُقال: صلح الشيء يصلحه صلاحًا.

قال ابن منظور في لسان العرب: الإصلاح تفعيل الإنسان وأصلح الشيء بعد فساده أقامهُ: وأصلح الراية أحسن إليها فصلحت.

واصطلاحًا: مأخوذ من الصلح: وهو عقد يدفع النزاع وهو بمعنى المصالحة، وهو المسالمة خلاف المخاصمة وأصلها من الصلاح وهو ضد الفساد ومعناه دال على حسنه الذاتي، وكم من فساد انقلب به إلى الصلاح بحسنه، ولهذا أمر الله تعالى به عند حصول الفساد والفتن بقوله تعالى: {وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩]، وقال تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: ١٢٨].

فيعلم بهذا أن جميع أنواع الصلح حسنة لأن فيه إطفاء المشاحنات الثائرة بين الناس.

من أنواع الصلح والإصلاح: إصلاح ذات البين: ومعنى ذات البين: صاحبة البين، والبين في كلام العرب يأتي على وجهين متضادين: فيأتي بمعنى الفراق والفرقة، ويأتي بمعنى الوصل وإصلاح ذات البين على المعنى الأول يكون بمعنى إصلاح صاحبة الفرقة بين المسلمين، وإصلاحها يكون بإزالة أسباب الخصام أو بالتسامح والعفو أو بالتراضي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البين وتنحل عقدة الفرقة.

أقسام الصلح: صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الزوجين، والصلح بين الفئة الباغية والعادلة والصلح بين المتغاضبين كالزوجين، والصلح في الجراح كالعفو على مال، والصلح لقطع الخصومة إذا وقعت المزاحمة إما في الأملاك أو المشتركات.

أما إصلاح ذات البين على المعنى الثاني فيكون بمعنى إصلاح صاحبة الوصل والتحابب والتآلف بين المسلمين، وإصلاحها يكون برأب ما تصدع منها وإزالة الفساد الذي دب إليها بسبب الخصام والتنازع على أمر من أمور الدنيا.

١- قال ابن القيم: فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله سبحانه ورضى الخصمين فهذا أعدل الصلح وأحقه وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم.

٢- قال الطبري: الإصلاح بين الناس هو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما ليرجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به.

الإصلاح في القرآن الكريم:

قال تعالى: {ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾} [الشعراء: ١٥٢].

قد ورد الإصلاح في القرآن الكريم في مواضع متعددة منها قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام يوصي أخاه هارون: {وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢]، وهو هنا بمعنى الرفق.

وهذا حين استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون

ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير {وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}، وإلا فهارون عليه السلام نبي كريم شريف على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

ومنه قوله تعالى على لسان نبي الله شعيب عليه السلام: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾} [هود: ٨٨]، وهو هنا بمعنى الإحسان أي عندما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي.

وما توفيقي أي في إصابة الحق فيما أريده: {إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} [هود: ٨٨]، أي في جميع أموري {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨]، أي أرجع. قال الثوري: أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، ولذلك نرى سيدنا شعيبًا يقف خطيبًا في قومه بفصاحته وبلاغته وجزالة موعظته فيقول: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [هود: ٨٥ - ٨٦].

وهذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بينة من ربكم، أي قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ماجئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسًا كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾} [المطففين: ١]، وقال تعالى: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾}

[الأعراف: ٨٦].

ينهاهم شعيبًا عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله:{ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ }، أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، وتصدون عن سبيل الله، أي تريدون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة{ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ } أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك:{وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }، أي من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقال تعالى:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۚ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود: ١١٦ - ١١٧]. أي فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

(إلا قليلا): أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤]، وفي الحديث الشريف: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو

شك الله أن يعمهم بعقاب» [1].

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾} [هود: ١١٧] أي أنه لم يهلك قرية قط إلا وهي ظالمة لنفسها ولم ينزل بأسه وعذابه على قرية مصلحة قط حتى يكونوا هم الظالمين.

كما قال تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾} [الزخرف: ٧٦].

وكما قال تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} [هود: ١٠١]، وقال: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى: و{وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩]، هذا أمر بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية، وإن عظمت لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم.

كما ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن بن علي عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطب يومًا ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة، وحقن الله به دماء المسلمين.

(١) رواه النسائي.

وقال تعالى: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١]، أي: اتقوا الله في أموركم.

وأصلحوا ذات بينكم أي أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتواد والتحابب والتواصل، فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل بسبب التقاطع من التخاصم والتشاجر والتنازع، ويدخل في إصلاح ذات البين، تحسين الخلق لهم والعفو عن المسيئين منهم.

النهي عن الإفساد في الأرض بعد الإصلاح:

قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾} [الأعراف: ٥٦].

ينهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور تسير على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك. {وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ} بالمعاصي والسيئات {بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا} أي: بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: {ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ} [الروم: ٤١]، كما أن الطاعات تصلح بها الأرض، وكذلك الأخلاق والأعمال الصالحة، وكذلك الأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

وهذا النهي من سيدنا شعيب عليه السلام جاء بعد ذكر مفاسد القوم من نقص في المكيال والميزان والصد عن سبيل

الله عز وجل وارتكاب المعاصي والموبقات، فإن ترك المعاصي والموبقات وامتثال أوامر الله عز وجل والتقرب إليه خير للعبد وأنفع من ارتكاب الموجب لسخط الله عز وجل، والموجب لعقابه وهذا نذير شؤم.

الصلاح صفات عباد الله المرسلين.

١- ثناء الله - عز وجل - على إسحاق ويعقوب ووصفهم بصفات الصلاح.

لقد أثنى الله عز وجل على أنبيائه، ورسله، ووصفهم بصفات الصلاح والإصلاح في الأرض فهم أئمة هدى وصلاح يصلحون ما أفسد الناس ويدعونهم إلى عبادة الله عز وجل بصفات الثناء.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} [الأنبياء: ٧٢].

وهذا فيه استجابة دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام عندما دعا بالولد فقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾} [الصافات: ١٠٠]، {وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} أي أهل خير وصلاح وجاء ذلك بوصف البركة والصلاح في ثناء الله عز وجل على إسحاق، قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾} [الصافات: ١١٢ - ١١٣]، فإسحاق عليه السلام نبي صالح مسلم يدعو إلى الإسلام والإصلاح والصلاح في الأرض.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ

ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾} [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣].

أي الجميع أهل خير وصلاح وبر وتقوى، أئمة يقتدى بهم ويهدون بأمر الله ويدعون الناس إلى عبادته، (وكلاً) أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، (جعلنا صالحين) أي قائمين بحقوقه ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إمامًا يهتدي به المهتدون ويمشي خلفه السالكون.

٢- ثناء الله عز وجل على إسماعيل وإدريس وذي الكفل بصفات الصلاح والصبر:

قال تعالى: {وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾} [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

أي اذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر وأثن عليهم أبلغ الثناء، لأنهم كانوا من الصابرين.

والصبر هو حبس النفس ومنعها عمّا إليه تميل، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة:

١ - الصبر على طاعة الله.

٢ - الصبر عن معصية الله.

٣- الصبر على أقدار الله المؤلمة:

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتى يوفي هذه الثلاثة حقها، فهؤلاء الأنبياء قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضًا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كل وقت وصلاح اللسان بأن يكون رطبًا بذكر الله، وصلاح الجوارح

باشتغالها بطاعة الله تعالى وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم برحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين وجعل لهم لسان صدق في الآخرين لكفى بذلك شرفًا وفضلاً.

الإصلاح في السنة ومواقف من حياة الصحابة في الإصلاح:

أولاً: روى البخاري في " الصلح " عن أبي موسى قال سمعت الحسن [1] يقول: استقبل والله الحسن بن عليّ معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تُوَلِّي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية - وكان والله خير الرجلين - أي عمرو إن قتل هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور المسلمين؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعاتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس، عبد الرحمن ابن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز - فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه، فتكلما وقالا له وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب، قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك، قال: فهل لي بهذا؟ قالا نحن لك به، فما سألهما شيئًا إلا قالا: نحن لك به، فصالحه: فقال الحسن ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر يقول والحسن بن علي إلى جنبه وهو يُقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين**

(١) هو: الحسن البصري رحمه الله، وقد سمع الحسن هذا الحديث من الصحابي الجليل أبي بكرة رضي الله عنه كما في صحيح البخاري (٣٦٢٩).

فئتين عظيمتين من المسلمين» [1].

وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة ومنقبة للحسن بن علي فإنه ترك المُلك لا لقلة ولا لزلة ولا لعلة بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة، وهذا فيه فضيلة الإصلاح بين الناس، ولا سيما في حقن دماء المسلمين ودلالة على رأفة معاوية بالرعية وشفقته على المسلمين وقوة نظره في تدبير الملك ونظره في العواقب، وفيه جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى في ذلك صلاحًا للمسلمين والنزول عن الوظائف الدينية والدنيوية بالمال وجواز أخذ المال على ذلك، وإعطائه بعد استيفائه شرائطه بأن يكون المنزول له أولى من النازل وأن يكون المبذول من مال الباذل فإن كان في ولاية عامة وكان المبذول من بيت المال.

قال الإمام ابن بطال رحمه الله، سلم الحسن لمعاوية الأمر وبايعه على إقامة كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس فسميت سنة الجماعة لاجتماع الناس وانقطاع الحرب، وبايع معاوية كل من كان معتزلاً للقتال كابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد ابن مسلمة، وأجاز معاوية الحسن بثلاثمائة ألف ألف ثوب وثلاثين عبدًا ومائة جمل وانصرف إلى المدينة، وولى معاوية الكوفة، المغيرة بن شعبة، والبصرة عبد الله بن عامر، ورجع معاوية إلى دمشق [2].

وقوله ﷺ عن الحسن بن عليّ: «إن ابني هذا سيد ويصلح الله به بين فئتين عظيمتين».

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح، الفتح ٥/٢٣٤.
(٢) " فتح الباري ".

هذا دال على أن السيادة إنما يستحقها من يشفع به الناس لكونه علق السيادة بالإصلاح.

ثانيًا: عن زيد بن طلحة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين ليأرزُ [1] إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين في الحجاز معقل الأَرْوية [2] من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي» [3].

وفي رواية: «الذين يصلحون حين يفسد الناس»، وهذه الصفة هي التي كان عليها أتباع النبي ﷺ في أول الإسلام، كان أحدهم ينزح من الأهل والعشيرة والوطن ليلحق برسول الله ﷺ ويسعد باتباعه، وهي ذاتها الصفة التي يكون عليها أهل الحق في آخر الزمان حتى تتجارى الفتن بالناس، فتن الشبهات وفتن الشهوات، حين لا يجدون على الحق نصيرًا ولا معينًا وبهذا قوى مناسبة هذا التفسير للغرباء في الرواية: «الذين يصلحون حين يفسد الناس»، فهم النازحون من الأهل والأوطان الفارون بدينهم لفساد الناس.

ويتأكد وصف الغربة حين يكونون بين أهل الفساد متميزين بصلاحهم، قد خلطوهم بأجسادهم وزايلوهم بأعمالهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: باب الغربة: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ} [هود: ١١٦]، استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم

(١) يأرز: أي ينضم ويتجمع.
(٢) الأروية: أنثى الوعل.
(٣) رواه الترمذي وقال: هذا حديث صحيح، ٢٦٣٠.

والمعرفة وفهم القرآن، فإن الغرباء في العالم هم أهله هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» قيل: ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»، وفي رواية قال: «هم النزاع من القبائل».

هؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم في الناس جدًا سموا غرباء فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها عن أهل الأهواء والبدع فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين غرباء.

وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام: ١١٦].

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب.

ثالثًا: قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: ١].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بَدَتْ نواجذه - ثناياه - فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يارب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري؟ قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: إن

ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يُحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وقصورًا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا؟ أو لأي صديق هذا؟ ولأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال أنت تملكه. قال بماذا؟ قال بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوتُ عنه، قال الله عز وجل: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين» (١).

وقوله ﷺ: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين» أي: واتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه.

وفي هذا الحديث الترغيب في العفو عن القاتل والجاني والظالم والترهيب من إظهار الشماتة بالمسلم، قال تعالى: {وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ} [الشورى: ٤٠ - ٤٣].

وهذا كقوله تعالى: {وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾} [النحل: ١٢٦].

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٥٧٦/٤ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والمنذري في الترغيب ٣٠٩/٣.

أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبدًا بعفو إلا عزا».

وقوله تعالى: {إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة.

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل يا أخي اعف عنه، فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال لا يحتمل قلبي العفو ولكن انتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور.

قال تعالى: {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ} [الشورى: ٤٣]، أي صبر على الأذى وستر السيئة، فإن ذلك لمن عزم الأمور يعني لمن حقق الأمور التي أمر الله تعالى بها من الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

استعمل العلاء بن زياد صديقًا له مدة على عمل فكتب إليه أما بعد فإن استطعت ألاَّ تبيت إلا وظهرك خفيف وبطنك خفيف وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل: {إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾} [الشورى: ٤٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم فلما كثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر رضي الله

عنه، فقال يارسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبت وقمت. قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان»، ثم قال: «يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح الرجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة» [1]، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصّديق رضي الله عنه.

ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم.

فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس وكل جارحة مماثلة لها والجروح قصاص والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: {وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ} [الشورى: ٤٠]، يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كبيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة تقتضي عقوبته فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به، وفي جعل أجر العافي على الله هذا مما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

(١) رواه أحمد في المسند، وأبو داود.

رابعًا: عن عروة أن أسامة بن زيد أخبره أن النبي ﷺ ركب حمارًا عليه إلكاف تحته قطيفة فدكية: وأردف وراء أسامة وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود فيهم عبد الله بن أبي وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا فسلم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقًا فلا تُؤذنا في مجالسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة، اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فقال فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى همّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال أي سعد: " ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب " - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يُتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرف بذلك فذالك فعل به ما رأيت فعفا عنه النبي ﷺ (١).

وفي رواية عن أنس بن مالك قال قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي، قال فانطلق إليه وركب حمارًا وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني فوالله لقد آذاني نتنُ

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٩.

حمارك، قال: فقال رجل من الأنصار، والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، قال فغضب لعبد الله رجل من قومه، قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدي وبالنعال قال: فبلغنا أنهما نزلت فيهم: {وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩] (١).

وفي هذا الحديث بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الحلم والصفح والصبر على الأذى في الله تعالى، ودوام الدعاء إلى الله تعالى وتألف قلوبهم، والله أعلم (٢).

وفيه بيان ما لقيّ النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، وفيه أن ركوب الحمار لا نقص فيه على الكبار، وفيه ما كان الصحابة عليه من تعظيم رسول الله ﷺ والأدب معه والمحبة الشديدة، وإن الذي يشير على الكبير بشيء يورده بصورة العرض عليه لا الجزم، وفيه جواز المبالغة والمدح لأن الصحابي أطلق أن ريح الحمار أطيب من ريح عبد الله بن أبي وأقره النبي ﷺ على ذلك.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن أناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء فخرج إليهم النبي ﷺ في أناسٍ من أصحابه يُصلح بينهم، فحضرت الصلاةُ، ولم يأتِ النبي ﷺ، فأذّن بلال بالصلاة، ولم يأتِ النبي ﷺ، فجاء إلى أبي بكر فقال: إن النبي ﷺ حُبس وقد حضرت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ فقال: نعم إن شئت، فأقام الصلاة فتقدم أبو بكر، ثم جاء النبي ﷺ يمشي في الصفوف حتى قام في الصف الأول، فأخذ الناس في التصفيح حتى

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد ١٧٩٩، ورواه البخاري في الصلح، الفتح ٢٢٨/٥.
(٢) شرح النووي على مسلم (١٥٩/١٢).

أكثروا، وكان أبو بكر لا يكاد يلتفتُ في الصلاة، فالتفت فإذا هو بالنبي ﷺ وراءه، فأشار إليه بيده، فأمره أن يصلي كما هو، فرفع أبو بكر يده فحمد الله ثم رجع القهقري وراءه حتى دخل في الصف فتقدم النبي ﷺ فصلى بالناس، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال يا أيها الناس: «إذا أنابك شيء في الصف في صلاتكم أخذتم بالتصفيق إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله، فإنه لا يسمعه أحد إلا التفت، يا أبا بكر ما منعك حين أشرتُ إليك لم تصل بالناس؟» فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي النبي ﷺ [1].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، وهذا فيه نظر الإمام في الصلح بين المسلمين وخروجه بنفسه في ذلك عند إشكال أمرٍ أو تفاقم فساد، والعمل بمبادرة الصلاة لأول وقتها كما فعلوه في غير موطن، ولم ينتظروه عليه السلام لغلبة ظنهم أنه يصلي في بني عمرو بن عوف، وفيه تقديم الصحابة لأبي بكر لكونه أفضلهم وأعلمهم [2].

وفيه جواز مباشرة الحاكم الصلح بين الخصوم ولا يعد ذلك تصحيفًا في الحكم، وعلى جواز ذهاب الحاكم إلى موضع الخصوم للفصل بينهم، إما عند عظم الخطب وإما ليكشف ما لا يحاط به بالمعاينة ولا يعد ذلك تخصيصًا ولا تمييزًا ولا وهنًا [3].

وفيه أنه لا يتقدم أحد بجماعة إلا برضى منهم لقول أبي بكر: إن

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، وفي كتاب الأحكام، واللفظ له، ورواه مسلم في كتاب الصلاة.
(٢) إكمال المعلم ٣٣١/٢.
(٣) الفتح ١٥٥/١٣.

شئتم، في بعض الروايات، أو إن شئت قاله لبلال، لأنه المؤذن وحافظ الوقت وداعي النبي ﷺ له فصار كالمستخلف له، وفيه قول بلال يا أبا بكر وهو معتقه وفيه ما كان عليه السلف من التواضع، وفيه فضل الإصلاح بين الناس ومشي الإمام وغيره في ذلك وأن الإمام إذا تأخر عن الصلاة تقدم غيره إذا لم يخف فتنة وإنكار من الإمام، وفيه أن المقدم نيابة عن الإمام يكون أفضل القوم وأصلحهم لذلك الأمر وأقومهم به.

خامسًا: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم.

وفي رواية أن أناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يُصلح بينهم [1].

سادسًا: إقامة الصلح بين المشركين لصالح الدين:

صلح الحديبية:

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية، كتب عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه بينهم كتابًا فكتب: محمد رسول الله ﷺ، فقال المشركون لا تكتب محمد رسول الله لو كنت رسولاً لم نقاتلك، فقال لعليّ إمحه، فقال عليّ ما أنا بالذي أمحوه فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح فسألوه ما جلبان السلاح، فقال: القراب بما فيه، وفي رواية قال: صالح النبي ﷺ

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح، الفتح ٥/٢٢٩.

المشركون يوم الحديبية على ثلاثة أشياء على أن من آتاه من المشركين رده إليهم، ومن آتاه من المسلمين لم يَرُدْهُ، وعلى أن يدخلها من قابل، ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح، السيف والقوس ونحوه، فجاء أبو جندل يحجلُ في قيوده، فرده إليهم (١).

وفي الحديث من الفقه: كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمن الناس به، وكلم بعضهم بعضًا وناظره في الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام.

ولهذا سماه الله فتحًا في قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾} [الفتح: ١]، نزلت في شأن الحديبية، فقال عمر: يارسول الله: أو فتح هو؟ قال: «نعم».

قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس كلم بعضهم بعضًا، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر يعني من صناديد قريش، ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجا، وكانت الهدنة مفتاحًا لذلك ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سميت فتحًا،

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب الصلح مع المشركين الفتح ٥/٢٣٢.

فإن الفتح في اللغة فتح المغلق، والصلح كان مغلقًا حتى فتحه الله وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عزًا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير [1].

وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عند الله بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه فذل المشركون من حيث أرادوا العزة وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة.

سابعًا: إقامة الحدود بها إصلاح المجتمع وصلاحه:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: **«مثل المُدهن [2] في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا: مالك، قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه ونَجَّوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم»** [3].

ففي الحديث وفيه أن إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه وبها صلاح المجتمع وإصلاحه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها.

وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبين العالم الحكم بضرب المثل ووجوب الصبر على أذى الجار إذا

(١) الفتح ٥/٢٦٦.
(٢) المدهن: المحابي، والمراد به من يراني ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر.
(٣) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات الفتح ٥/٢٢٥.

خشي وقوع ما هو أشد ضررًا، وأنه ليس لصاحب السفل أن يحدث على صاحب العلو ما يضر به، وأنه إن أحدث عليه ضررًا لزمه إصلاحه وأن لصاحب العلو منعه من الضرر [(١)].

ثامنا: الصلح بين الغرماء:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: تُوفي أبي وعليه دينٌ، فعرضتُ علي غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا ولم يروا أن فيه وفاءً فأتيتُ النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: إذا جددته فوضعته في المربد آذنتَ رسول الله ﷺ فجاء ومعه أبو بكر وعمر فجلس عليه ودعا بالبركة، ثم قال: ادع غرماءَك فأوفهم فما تركتُ أحدًا له عليَّ أي دينٌ إلا قضيته، وفضل ثلاثة عشر وسقًا: سبعةٌ عجوة وستة لون، أو ستة عجوة، وسبعة لون، فوافيت مع رسول الله ﷺ المغرب فذكرت ذلك له فضحك فقال: ائتِ أبا بكر وعُمر فأخبرهما، فقالا: لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك [(٢)].

فيه جواز الاستنظار في الدّين الحال وجواز تأخير الغريم لمصلحة المال الذي يوفى منه، وفيه مشي الإمام في حوائج رعيته وشفاعته عند بعضهم في بعض، وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة لتكثير القليل إلى أن حصل به وفاء الكثير وفضل منه.

قال ابن بطال: ولا خلاف بين العلماء في صحة الإبراء من الدين إذا قبل البراءة، وفيه جواز الصلح بين الغرماء على الدين وجواز هبة الدين.

---

(١) الفتح ٥/٢٢٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب الصلح بين الغرماء وأصحاب الميراث، الفتح ٥/٢٣٧.

وفي الحديث الحض على الرفق بالغريم والإحسان إليه بالوضع عنه والزجر عن الحلف على ترك فعل الخير.

ثمار الإصلاح بين المسلمين:

أولاً: الإصلاح بين المسلمين إذا تنازعوا واجب لابد منه على الفقهاء والحكماء من هذه الأمة لتستقيم حياة المجتمع ويتجه نحو العمل المثمر الفعال.

قال تعالى: {وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩].

قال العلماء: الفئتان من المسلمين، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا أو لا، فإن كان الأول، فالواجب في ذلك أن يُمشى بينهما بما يصلح ذات البين، ويثمر المكافّة والموادعة، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما، وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى فالواجب أن تُقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، فإن التحما القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقةٌ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق، فإن ركبتا فتن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُديتا إليه ونُصحتها به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقت بالفئتين الباغيتين [1].

ثانياً: الإصلاح بين المسلمين به تحل المودة محل القطيعة والمحبة محل الكراهية ولذا يستباح الكذب في سبيل تحقيقه.

---

(١) القرطبي ٢٠٨/١٦.

قال ﷺ: «ليس الكذابُ الذي يصلح بين الناس، ويقول خيرًا وينمي خيرًا» [1].

قال ابن شهاب ولم أسمع يُرخص في شيء مما يقول الناس كذبٌ إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.

قال الطبري: ذهبت طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح، وقالوا: إن الثلاث المذكورة، كمثال، وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة أو ما ليس فيه مصلحة، وقال آخرون لا يجوز الكذب في شيء مطلقًا وحملوا الكذب المراد هنا على التورية والتعريض، كمن يقول للظالم دعوت لك أمس، وهو يريد قوله: اللهم اغفر للمسلمين، ويعد امرأته بعطية شيء ويريد إن قدر الله ذلك وأن يظهر في نفسه قوة، اتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقًا عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أولها وكذا في الحرب في غير التأمين، واتفقوا على جواز الكذب في الحرب في غير التأمين.

واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختف عنده فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم والله أعلم [2].

ثالثًا: الإصلاح منبعه النفوس السامية ولذا كان النبي ﷺ يخرج بنفسه ويسعى للإصلاح بين الناس، وفي هذا أن رسول الله ﷺ كان

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح، الفتح ٢٩٩/٥.
(٢) الفتح ٢٢٩/٥.

يسعى بنفسه ويخرج للصلح بين المسلمين المتخاصمين وقد ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم» [1]، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم.

عن عمرة بن عبد الرحمن قالت سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: سمع رسول الله ﷺ صوت خصومٍ بالباب عالية أصواتُهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويستوقفه في شيء وهو يقول والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ وقال: أين المتألي على الله لا يفعل المعروف، فقال: أنا يا رسول الله، وله أيُّ ذلك أحبَّ [2].

المُتألِّيَ: بضم الميم وفتح المثناة والهمزة وتشديد اللام المكسورة أي الحالف المبالغ في اليمين مأخوذ من الآلية بفتح الهمزة وكسر اللام وتشديد التحتانية وهي اليمين.

وفي هذا الحديث الحض على الرفق بالغريم والإحسان إليه بالوضع عنه، والزجر عن الحلف على ترك فعل الخير، قال الراوي: إنما كره ذلك لكونه حلف على ترك أمر على أن يكون قد قدر الله وقوعه قوله: (فله أي ذلك أحب) أي من الوضع أو الرفق، وفيه سرعة فهم الصحابة لمراد الشارع، وطواعيتهم لما يشير به، وحرصهم على فعل الخير، وفيه الصفح عما يجرى بين المتخاصمين من اللفظ ورفع الصوت

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح، الفتح ٢٣٥/٥.

عند الحاكم وفيه جواز سؤال المدين الحطيطة من صاحب الدين خلافًا لمن كرهه من المالكية واعتل بما فيه من تحمل المنة [1].

رابعًا: إصلاح ذات البين أفضل من نافلة الصيام والصلاة والصدقة.

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة» [2].

عن أنس النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة» قال: بلى يا رسول الله، قال: «تسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا» [3].

عن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: كنت جالسًا مع محمد بن كعب القرظي، فأتاه رجلٌ فقال له القوم: أين كنت؟ فقال: أصلحتُ بين قوم، فقال محمد بن كعب القرظي: أصبت، لك مثل أجر المجاهدين، ثم قرأ: {لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء: ١١٤] [4].

خامسًا: الإصلاح بين الناس يغرس في نفوسهم فضيلة العفو.

قال تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: ٤٠]، هذه هي مرتبة الفضل العفو والإصلاح عن المسيء،

(١) الفتح ٥/٢٣٦.
(٢) رواه أحمد في المسند وأبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) رواه البزار.
(٤) إعلام الموقعين ١/١٠٩.

وهذا يجزيه الله أجرًا عظيمًا وثوابًا كبيرًا وشرط الله في العفو الإصلاح فيه ليدل على أن العفو أفضل، وفي جعل أجر العافي على الله، هذا مما يهيج على العفو وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامل به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله» (١).

وفيه استحباب العفو والتواضع، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، أي من عرف بالصفح والعفو ساد وعظم في القلوب وزاد عزه، أو أن يكون أجره على ذلك في الآخرة وعزته هناك، وهذه الوجوه كلها في الدنيا ظاهرة موجودة.

قال الفضيل بن عياض، إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل يا أخي اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن انتصر كما أمر الله عز وجل - قل فإن كنت تُحسن تنتصر مثلاً بمثل وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه بابٌ أوسع فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله وصاحب العفو ينام الليل على فرشه، وصاحب الانتصار يقلب الأمور (٢).

سادسًا: الإصلاح به اكتساب الحسنات والثواب الجزيل من جراء الإصلاح بين الناس.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة ٢٥٨٨.
(٢) حلية الأولياء ١١٢/٥.

أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾} [النساء: ١١٤].

وهذا ظاهر في فضل الإصلاح: {وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ} أي مخلصًا إلى ذلك محتسبًا ثواب ذلك عند الله عز وجل: {فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} أي ثوابًا جزيلاً كثيرًا واسعًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا [1].

ذكر أبو نعيم الحافظ عن علي بن الحسين رضي الله عنهم قال: إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ أيكم أهل الفضل؟ فيقوم ناس من الناس، فيقال: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة: فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: أهل الفضل، قالوا: وما فضلكم؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حلمنا وإذا ظلمنا صبرنا وإذا سيء إلينا عفونا، قالوا: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.

سابعًا: الإصلاح يُثمر المغفرة للمتخاصمين عند المصالحة.

قال تعالى: { وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾} [الأعراف: ١٧٠].

أي: يتمسكون به علمًا وعملاً، فيعملون ما فيه من الأحكام

(١) رواه مسلم ٢٥٦٥.

والأخبار التي علمها أشرف العلوم ويعلمون بما فيها من الأوامر، التي هي قرة العيون، وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة، ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا، ولهذا خصها بالذكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الإيمان وإقامتها واعية لإقامة غيرها من العبادات ولما كان عملهم كله إصلاحًا، قال تعالى: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} في أقوالهم أو أعمالهم ونياتهم مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية، وما أشبهها، دلت على أن الله تعالى بعث رسله، عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم [1].

ثامنًا: الإصلاح بين الناس عهدٌ أخذ على المسلمين.

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾} [الحجرات: ١٠].

هذه أخوة الدين - أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، ولهذا قال ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانًا» [2].

قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى

(١) تفسير السعدي ٢/١٦٩.
(٢) متفق عليه.

هاهنا» ويشير إلى صدره.

قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (١).

{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} عقد الأخوة: هذا عقد عقده الله بين المؤمنين أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها إيمان فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم.

قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه (٢).

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم ببعض وبما يحصل به التآلف والتواد والتحاب والتواصل بينهم كل هذا تأييد لحقوقهم بعضهم على بعض: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (٣) وهذا من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض.

* * *

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.